فضل العرب

فيما أدخلوه من النبات وأساليب الزراعة في أوربا (١)

محمود مصطفى الدمياطي

إن ثروة البلاد الإسلامية العربية التي طالما بهرت الغربيين تشهد على ما امتاز به مجتمعهم من نشاط مطرد فقد كان الشعب فيها في مقدمة الزراع ومن أحاسن الصناع وأمهر التجار في العالم القديم . فالزراعة التي تلقوها في أروع المدارس سواء في بابل أو سوريا أو مصر صارت لديهم علماً محققاً حتى أنهم وضعوا لها نظريات فنية منظمة على إثر مشاهداتهم وتجاريبهم العملية التي أجروها في مهارة فائقة . ولم يأنف أرفعهم قدراً من أن يفلح الأرض بيده على الرغم من اعتبار ذلك مما يحط بقدر الإنسان في سائر الأمصار الأخرى (٢) . وقد قال الزراعي أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد الشهير بابن العوام الإشبيلي الذي نبغ في أواخر القرن السادس الهجري ما معناه « أن من حرث الأرض وبذرها وجعلها تنتج غذاء صالحاً للإنسان والحيوان يكون قد عمل حسنة يثاب عليها يوم القيامة »(٣) . واشتاز العرب على الأخص بفلاحة البساتين و(تبليد) النباتات ووصف [illegible] الأرض [illegible] الهيدروغرافيا الزراعية [illegible] . وكفانا دليلاً كم كان يبهجهم منظر الأزهار وشذاها لا سيما وأن أمراءهم وأغنياءهم لم يبخلوا ببذل المال في سبيل تنسيق حدائقهم

(١) اعتمدت في أكثر [illegible] هذا المقال على كتاب التاريخ [illegible] لا تتعدى من القرن الرابع إلى سنة تأليفه كما سيتضح [illegible] مصادر الجزء الأول منه تبتدئ من سنة [illegible] ١٠٩٥ [illegible] مطبوع في [illegible] سنة ١٨٩١ [illegible]

(٢) [illegible] ذلك [illegible] محمد دياب بك في كتابه تاريخ العرب في [illegible]

[illegible]

(٣) [illegible]

وجلب غرائب الغروس وأكارم الشجر ومهرة العمال من البلاد النائية لضمان نجاحها. وبهذه الطريقة ادخلوا الياسمين في أوربا والكاميليا الحمراء والبيضاء والورد الأزرق والأصفر ولم يتطلب ادخال النباتات النافعة نشاطاً وجهداً أكثر مما بذلوه فقد جلبوا الأرز من الهند الى اسبانيا عن طريق مصر وصقلية وقصب السكر عن طريق آسيا الصغرى الى الأندلس والتوت الذي عودوه هواء صقلية واسبانيا والقطن والزعفران وبقلة الهليون المسماة بلسان الاندلسيين الاسفراج وأول من اجتناها للأمير عبد الرحمن الثاني ابن الحكم ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله. والحرشف أي «الخرشوف» والفصوليا. ومن الأشجار البرتقال والمشمش والأترج والنخل. قال ابن سعيد والرمان السفري الذي فاض على أرجاء الاندلس وصار لا يفضلون سواه[1] وغير ذلك

ولما كانت ثروة الأرض في البلاد الحارة الجافة في حوض البحر المتوسط تتوقف على تدبير استعمال المياه فقد عرف أهل العراق ومصر منذ القدم طرق تنظيم المياه الجارية واستنباط المياه من الأرض وتوزيعها في ترع الري كما فطنت الحكومات النظامية المتعاقبة بعد ذلك الى ما لارواء الأرض من الأهمية القصوى حتى نقلها العرب عنهم واستخدموها كلما توفرت أحوال المناخ وطبيعة الأرض وأتاحت لهم استخدام الوسائل الدقيقة بعد ما وقفوا على منافعها. وقد عُني الخلفاء بالانفاق من مالهم الخاص في حفر الآبار وتشييد القنوات ومنح المستنبطين عيون المياه أموالاً جزيلة مكافأة لهم. ومن قبيل ذلك ان الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور حفر آباراً في طريق الحج الى مكة. وأنفقت زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد مليوناً وسبعمائة ألف دينار من أجل قناة. ومن مثل ذلك ان عمرواً بن العاص بعد ما فتح مصر أصلح جسور النيل وترعه وحذا حذوه في ذلك الطولونيون والفاطميون. وأدخل العرب في اسبانيا تساجين أو دواليب ذوات قواديس تديرها الماشية وقناطر لحجز المياه وترعاً لتوزيعها في شتى النواحي. وأنشأوا محكمة خاصة لتنظيم أعمال الري وتسوية مشاكله. وأوفى ما صنعوه في بلنسية للاستغلال الزراعي هو منشآت ارواء الحدائق. ذلك انهم أنشأوا على بعد فرسخين من مصب نهر التوريا قناطر لحجز لتوزيع المياه وحفروا سبعاً من الترع على جانبي ذلك النهر لكل منها سبعة فروع أخرى تتخلل السهل كله بحيث تخترق ما يعلوها من الأرض بواسطة (براج) من الدم أو قنوات عالية وكانوا يفتحون الترع السبع الرئيسية واحدة بعد أخرى حسب أيام الأسبوع فتمتلئ بالماء وتغذي تلك الترع الصغرى التي كانوا يفتحونها ويغلقونها في ساعات معينة من اليوم. وبهذا التوازن كانت كل بقعة من تلك الأراضي تأخذ نصيبها من الماء

(١) قال: وسبب تسميته بذلك ان الأمير عبد الرحمن الداخل أرسل رسولاً يحمل أخته [illegible] الشام الى الأندلس بتحف [illegible] من جملتها رمان من رصافة [illegible] فأعطى [illegible] منه الى سفر بن عبيد من جند [illegible] فغرس عجمه في قرية [illegible] وأثمر وجاء به الى الأمير [illegible] فغرس منه [illegible] وسماه باسمه [illegible]